٤ـ رسالة التوقيف على شارع النجاة.

بسم الله الرحمن الرحيم
صلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

ـ ٤ ـ

رسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق

قال الشيخ الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن حزم رضي الله عنه :

الحمد لله رب العالمين كثيراً ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله ، وسلم تسليماً ، وبالله نستعين على كل ما يقرب منه ، أما بعد فإن خطابك اتصل بي فيما شاهدته من انقسام أهل عصرنا قسمين : فطائفة اتبعت علومَ الأوائل وأصحابَ تلكِ العلوم ، وطائفةٌ اتبعتْ علمَ ما جاءتْ به النبوةُ ، ورغبتكَ في أن أبيّنَ لك وجهَ الحقِّ في ذلك بغاية الاختصار ، لئلا يُنسي آخرُ الكلام أوّلَه ، وبنهاية [1] البيان ، ليفهمَهُ كلُّ من قرأه ، بلا كلفةٍ ، وأنْ يكونَ عليه من البرهان ما يصحّحه لئلا يصيرَ دعوى كسائر الدعاوى ، فسارعتُ إلى ذلك متأيِّداً بالله عز وجل لوجوبِ نصيحة الناس والسعي في استنقاذهم من الهلكة ، وحسبنا الله تعالى :

١ ـ اعلم ـ وفقنا الله وإياك لما يرضيه ـ أنَّ علومَ الأوائل هي : الفلسفة وحدود المنطق التي تكلم فيها أفلاطون وتلميذه أرسطاطاليس والإسكندر [2] ومن قفا قَفْوَهم ، وهذا علم حَسَنٌ رفيع لأنَّه فيه معرفة العالم كله ، بكل ما فيه من أجناسه إلى أنواعه إلى أشخاص جواهره وأعراضه ، والوقوف على البرهان الذي لا يصحُّ شيء إلا به ، وتمييزه مما يظنُّ مَنْ جَهِلَ [3] أنه برهان ، وليس برهاناً ، ومنفعةُ هذا العلم عظيمةٌ في تمييز الحقائق مما سواها .

---

(١) ص : ونهاية .

(٢) هو الإسكندر الأفروديسي الذي فسر أكثر كتب أرسطاطاليس (انظر الفهرست : ٢٥٣ وابن أبي أصيبعة ١ : ٦٩ والقفطي : ٥٤) وكانت بينه وبين جالينوس مناظرات ومشاغبات كما كانت شروحه يرغب فيها في الأيام الرومية والإسلامية .

(٣) من جهل : مكررة في ص .

٢ ـ وعلم العدد الذي تكلم فيه أندروماخش [١] مؤلف كتاب الأرثماطيقي في طبائع العدد ، ومن نحا نحوه ، وهو علم حسن صحيح برهاني . إلا أن المنفعة به إنما هي في الدنيا فقط : في قسمة الأموال على أصحابها ونحو هذا ، وكل ما لا نفع [٢] له إلا [١٤٢ ب] في الدنيا فهي منفعة قليلة وَتِحَةٌ [٣] لسرعة خروجنا من هذه الدار ولامتناع [٤] البقاء فيها ، وكل ما ينقضي فكأنه لم يكن ، وكما يقول يحيى [٥] :

وما هذه الدنيا سوى كـرٍّ لحظـة [٦] يُعَدُّ بها الماضي ومـا لم يحنْ بعـدُ
هي الزمنُ الموجود لا شيءَ غـيره وما مَرَّ والآتي عَديمان يا دَعدُ [٧]

٣ ـ وعلم المساحة التي تكلم فيها جامعُ كتاب أقليدس [٨] ومن نهج نهجه ، وهو علم حَسَنٌ برهاني ، وأصله معرفة نسبة الخطوط والأشكال بعضها من بعض ، ومعرفة ذلك في شيئين : أحدهما فهمُ صفة هيئة الأفلاك والأرض ، والثاني في رفع الأثقال [٩] والبناء وقسمة الأرضين ونحو ذلك . إلا أن هذا القسم منفعته في الدنيا فقط . وقد قلنا إن ما لا نفع له إلا في الدنيا فمنفعته قليلة لسرعة انقطاعها ، ولأنه قد يبقى المرء في دنياه ـ طولَ مدته فيها ـ عارياً من هذين العلمين ، ولا يعظم ضررُهُ بجهلهما [١٠] لا في عاجل ولا في آجل .

٤ ـ وعلم الهيئة : الذي تكلم فيه بطليموس ، ولـونخس [١١] قبله ، ومن سلك

(١) لم يذكر كل من ابن أبي أصيبعة والقفطي لأندروماخس الحكيم الفيلسوف كتاباً في طبائع العدد ، (انظر القفطي : ٧٢) ، أما مؤلف كتاب الأرثماطيقي في علم العدد فهو نيقوماخوس (القفطي : ٣٣٦) .

(٢) ص : يقع .

(٣) ص : وتحى ، والوتحة : القليلة التافهة .

(٤) ص : والامتناع .

(٥) ص : يحى . ولعل الشاعر هو يحيى بن حكم الجياني الملقب بالغزال ، وهو شاعر أندلسي حكيم ؛ وإذا قرئت اللفظة « نحن » وهو الأرجح فالبيتان لابن حزم نفسه ، وهما شبيهان بشعره .

(٦) ص : لر محطة .

(٧) الشطر الثاني من هذا البيت غير واضح كثيراً في الأصل .

(٨) كتاب اقليدس هو المعروف بأصول الهندسة أو الأصول كما سماه الإسلاميون وهو كتاب جامع في بابه ؛ وقد نقل إلى العربية مرات عدة ، وعملت عليه شروح كثيرة ، وشرحه بعض الأندلسيين (القفطي : ٦٢ ـ ٦٥ ومقدمة ابن خلدون : ٤٢٤) .

(٩) ص : الانتقال .

(١٠) ص : ضرورة بجهلها .

(١١) أما بطليموس فهو القلوذي صاحب المجسطي ومنظم علم الفلك ، وكل من جاء بعده من علماء الهيئة فإنما حاول شرح كتابه ، وأما لونخس فلم أتبينه والأشبه أن يكون هو إبرخس الذي يقال إنه أستاذ بطليموس وعنه أخذ (انظر الفهرست : ٢٦٧) .

مسلكهما ، أو سلكا مسلكه ، ممن كان قبلهما من أهل الهند والنبط والقبط ، .وهو علم برهاني حسيٌّ حسن ، وهو معرفة الأفلاك ومدارها وتقاطعها ومراكزها وأبعادها ، ومعرفة الكواكب وانتقالها وأعظامها وأبعادها وأفلاك تداويرها . ومنفعة هذا العلم إنما هو في الوقوف على أحكام الصنعة وعظيم حكمة الصانع [1] وقدرته وقصده واختياره ، وهذه منفعة جليلة جداً لا سيما في الآجل .

٥ ـ وأما القضاء بالكواكب فباطلٌ لتعرِّيه من البرهان ، وإنما هو دعوى فقط ، ولا نحصي كم شاهدنا من كذب قضاياهم المحققة ، وإن أردتَ الوقوفَ على ذلك فجرِّبْ ، تجدْ كذبَها أضعافَ صدقها كالراقي والمتكهن سواء سواء ولا فرق .

٦ ـ وعلم الطب الذي تكلم فيه [١٤٣/أ] أبقراط وجالينوس وذياسقوريدس [2] ومن جرى مجراهم ، وهو علم مداواة الأجسام من أمراضها مدة مقامها في الدنيا ، وهو [3] علم حسن برهاني ؛ إلا أن منفعته إنما هي في الدنيا فقط ، ثم ليست أيضاً صناعةً عامة ، لأننا قد شاهدنا سكانَ البوادي وأكثر البلاد يبرأون من عللهم بلا طبيب ، وتصحُّ أجسامهم بلا معالجة كصحة المتعالجين وأكثر ، ويبلغون من الأعمار كالذي يبلغه أهلُ التداوي في القصر والطول ، وفيهم من يرتاضُ ومن يخدم ولا يرتاض ، ومن لا يرتاض ولا يخدم كأهل اليسار منهم والدعة من الرجال والنساء . فإن قيل : إنّ لهم علاجات يستعملونها [4] قلنا تلك العلاجات ليست جارياتٍ [5] على قوانين الطبِّ بل هي مذمومةٌ عند أهل العلم بالطبّ ، وأكثر ما يُقْدِمُون عليه بالرُّقَى ولا مدخل له عند أهل الطب .

٧ ـ فاعلم الآن أنَّ كلَّ علم قلَّتْ منفعته ، ولم تكنْ مع قلَّتها إلا دنياوية وعاش مَن جَهِلهُ كعيش من علِمَهُ ـ مدة كونهما [6] في الدنيا ـ فإن العاقل الناصح لنفسه لا يجعله وَكْدَهُ ، ولا يُفْنِي فيه عمره ، لأنه ينفق أيامَ حياته ، التي لا يستعيضُ في الدنيا منها [7] فيما لا ضرورةَ به إليه ولا كثيرَ حاجةٍ تدعوه نحوه .

---

(١) ص : الصنائع .

(٢) انظر الفهرست : ٢٨٧ . ٢٨٨ . ٢٩٣ والقفطي : ١٠٠ . ١٢٢ . ١٨٣ ، وذياسقوريدس المشار إليه هنا هو العين زربي ؛ قال القفطي : وهو أعلم من تكلم في أصل علاج الطب ، وهو العلامة في العقاقير المفردة ، وهو من حيث الزمن سابق على جالينوس .

(٣) ص : وهم .

(٤) ص : يستعملوها .

(٥) ص : جايزات .

(٦) ص : كونها .

(٧) ص : فيها .

٨ ـ ووجدنا ما جاءت به النبوة ومنفعته في ثلاثة أشياء : أحدها : إصلاحُ الأخلاق النفسية وإيجاب التزام حَسَنِهَا : كالعدل والجود والعفة والصدق والنجدة في موضعها ، والصبر والحلم والرحمة ، واجتناب سيئها كأضداد هذه التي ذكرنا . وهذه منفعةٌ عظيمة لا غنىً لساكني الدنيا عنها ، ولا شكَّ في العقل في أن صلاحَ النفس ومداواتها من فسادها ، أنفعُ من مداواة الجسدِ وإصلاحه ، لأن مداواةَ الجسد تابعةٌ لمداواةِ النفس . إذ في مداواة النفس إيجابُ ألَّا يُدْخِلَ الإنسان على جسده ما يؤلمه بالمرض ، فيقطع به عن مصالحه [١٤٣ ب] . وما عمَّ إصلاح النفس والجسد معاً أفضلُ وأولى بالاهتبال به مما خَصَّ إصلاحَ الجسد فقط ـ هذا برهان عقلي ضروري حسي .

٩ ـ ولا يمكن ألبتةَ إصلاحُ أخلاق النفس بالفلسفة دون النبوة ، إذ طاعةُ غير الخالق ـ عز وجل ـ لا تَلْزَمُ . وأهل العقول مختلفون في تصويب هذه الأخلاق ، فذو القوة الغضبية التي هي غالبةٌ [١] على نفسه لا يرى من ذلك ما يراه ذو القوة النباتية [٢] الغالبة على نفسه ، وكلاهما لا يرى من ذلك ما يرى ذو القوة الناطقة الغالبة على نفسه [٣] .

١٠ ـ والوجه الثاني من منافع ما جاءت به النبوة : دفعُ مظالم الناس الذين لم تُصْلحهم الموعظة ولا سارعوا إلى الحقائق ، وحياطةُ الدنيا والأبشارِ والفروجِ والأموالِ ، والأمْنُ على كلٍّ ذلك من التعدّي والغلبة وكفايةُ من ضاع ولم يقدر على القيامِ بنفسه . وهذه منفعةٌ عظيمة جليلة ، لا بقاءَ لأحدٍ في هذه الدنيا ، ولا صلاحَ لأهلها إلا بها . وإلا فالهلاك لازمٌ والبوارُ واجب . وليست كذلك منفعة العلوم التي قدمنا قبلُ ، وقد قدمنا أنه لا سبيل إلى منع التظالم ولا إلى إيجاد التعاطف بغير النبوة أصلاً ، لما ذكرنا من أن طاعة غير الخالق تعالى لم يَقُمْ برهان بوجوبها ، ولأن الفسوق ومُخْتَلِفَةَ الأهواء لا يَنْقَادُ بعضها إلى بعض .

١١ ـ والوجه الثالث من منافع ما جاءت به النبوة هو التقدم لنجاة النفس فيما بعد خروجها من هذه الدار ، من الهلكة التي ليس معها ولا بعدها شيءٌ من الخير ، لا ما قلَّ ولا ما كثر ، ولا سبيل ألبتَّةَ إلى معرفة حقيقة مراد الخالق منها ولا إلى معرفةِ

---

(١) ص : عالية .

(٢) ص : السانية .

(٣) قسم الفلاسفة الأخلاق والقوى بنسبتها إلى الأنفس وهي : النفس النباتية الشهوانية والنفس الحيوانية الغضبية ، والنفس الإنسانية الناطقة فالأولى مسؤولة عن شهوة الغذاء ، والثانية عن شهوة الجماع والانتقام والرياسة ، والثالثة عن شهوة العلوم والمعارف والتبحر والاستكثار منها (انظر رسائل إخوان الصفا ١ : ٢٤١ وما بعدها) .

طريق خلاصنا إلا بالنبوة . وأما بالعلوم الفلسفية التي قدّمنا فلا - أصلا - ومن ادَّعى ذلك فقد ادَّعى الكذب ، لأنه يقول ذلك بلا برهان ألبتة . وما كان هكذا فهو باطل ، ولا يعجز أحدٌ عن الدعوى . وليست [١٤٤/أ] دعوى أحدٍ أولى من دعوى غيره بلا [1] برهان . ثم البرهان قائم على بُطْلانِ هذه الدعوى . لأن الفلاسفة الذين إليهم يسْتَنِدُ هذا المدَّعي يختلفون في أديانهم كاختلاف غيرهم سواء سواء . فوجب طلب الحقيقة في ذلك عند من قام البرهان على أنه إنما يخبر عن خالق العالم ومدبِّره - عز وجل - . وهذا مكان يُلزم العاقلَ الناصحَ لنفسه ألا يجعل كَدَّه ولا اجتهاده إلا في الوقوف على حقيقته ، وإلا فهو مُوبِقٌ لنفسه ، ولا يشتغل عن ذلك بعلم من العلوم تقِلُّ منفعته ، ومَنْ فَعَلَ هذا فهو ضَعيفُ العقل ، فاسد التمييز ، سيّء الاختيار ، مستحقٌّ للذم ، جانٍ على نفسه عظيم الجنايات .

١٢ - فأول ذلك أن ينظر : هذا العالمُ مُحْدَثٌ كما قالت الأنبياء - عليهم السلام - وأكثر علماء الأوائل والفلاسفة ، أمْ لم يزل كما قال غيرهم . ومعرفة حقيقة ذلك قريبة جداً لصحةِ البرهان الحسيّ الضروريّ المشاهد على تناهي عددِ الأشخاص النامية من كلِّ نوعٍ من أنواع الحيوان والنبات . فإن أشخاص نوعين منها أكثر عدداً بلا [2] شك من أشخاص أحد ذينك النوعين . فإذْ لا شكَّ في هذا عند أحد ، فقد ثبت المبدأ في وجود كل عدد متناه ، فقد وجب لها المبدأ ضرورة - ولا بدَّ - وإن زمان رجود الفلك الكليّ - بكل ما فيه - يزيد عدد ساعاته بما يأتي منه . وبالضرورة يدري كل أحدٍ [3] أن ما قَبلَ الزيادة ، فإن النقص موجود فيه قبل تلك الزيادة ، عما صار إليه بتلك الزيادة . ولا شك في [أن] الزيادة والنقصْ لا يمكن وجودهما إلا في ذي نهاية ومبدأ . فصحَّ المبدأ للعالم ضرورة . وصحَّ أنه محدث مبتدأ [4] . والله أعلم .

١٣ - وأيضاً فإن الزمانَ كلَّه يومٌ ثم يوم - هكذا مُدَّةَ وجوده - وكلُّ يوم فله مبدأ ونهايةٌ بالمشاهدة . فإذ كلُّ جزء من أجزاء الزمان ذو مبدأ ونهاية - والزمان ليس هو شيئاً غيرَ أجزائه التي هي أيامه [١٤٤ ب] - فالزمان ذو مبدأ ونهاية - ولا بدَّ - ضرورةً ، ومن ادَّعى مُدَّةً غيرَ الزمان فقد ادعى الباطلَ وما لا يقومُ به برهان أبداً . ومن أراد إيقاع الزمان على الباري تعالى فقد تناقض بالباطل ، لأن الزمان - كما بينّا - ذو مبدأ ، والباري

(١) ص : فلا .

(٢) ص : عدد فلما .

(٣) صَ : أن كل أحد .

(٤) انظر ما أورده ابن حزم من براهين على حدوث العالم في الفصل ١ : ١٤ وما بعدها .

لا مبدأ له ، فهو خالق الزمان ، فهو في غير زمان ـ ولا بدّ ـ .

١٤ ـ ثم ينظر هل له محدث مبتدىء أو لا ، فوجب بأول العقل أن الحدوث والإبتداء فعلٌ ، والفعل يقتضي فاعلاً ضرورة ، ولا يمكن غير ذلك أصلاً .

وأيضاً فإن النشأة والتربية والعيش ، وعمارة ما لا عيش إلا به من نبات الأرض والحيوان المُسَخَّر ، لا يمكن شيء من ذلك ألبتة ولا يكون وجودُهُ أصلاً إلا بلغةٍ يقع بها التخاطبُ والتفاهمُ . ووجدنا كلَّ مَنْ لم يعلم اللغة لا يتكلم أبداً . وهكذا وجدنا كلَّ من يولد أصمَّ ، فإنه لا يكون ضرورة إلا أبكم لا ينطق أبداً ؛ فصحَّ ضرورةً أنه لا يتكلم أحدٌ أبداً إلا من سمع الكلام وعلمه ، وكذلك جميع العلوم لا يمكن ألبتة أن يحسنها أحدٌ أبداً إلا حتى يعلمها ، برهان ذلك المشاهدُ مُدَّةَ عمر العالم إلى يومنا هذا ، فإن كلَّ من لا يعلم الكلام لا يعلمه . والبلادُ التي لا علم فيها كبلاد الروم والصقالبة والترك والديلم والسودان والبربر والبوادي التي بين الحواضر لا سبيل إلى أن يوجد فيها شيء من العلوم التي لم يعلموها مذ وجد [(1)] العالم إلى يومنا هذا ، وكذلك جميع الصناعات من الحرث والحصاد والدَّرس ، وآلات كل ذلك ، والذَّرْو والطحن وعمل الكتان والقطن والقنب والحرير وغزل ذلك كله . لا سبيل إلى أن يعرف أحدٌ شيئاً من ذلك كله إلا حتى يُوقَفَ عليه فيقبله ويترفق به ويفتق [(2)] بذهنه في ذلك بما جعل في طبعه من قبوله [(3)] ، وبرهان ذلك أنه من لم يعلمه قط لا يدريه . وأنَّ البلاد التي خلت من بعض هذه الصناعات لا توجد أصلاً فيها مذ كان العالم إلى يومنا [١٤٥/أ] هذا ، بخلاف ما تقتضيه الطبيعةُ مما لا يُحْتَاج فيه إلى معلم : كالرضاع والأكل والشرب والجماع وغير ذلك مما لا يحتاج فيه الإنسان إلى معلم وكذلك سائر الحيوان . فصحَّ ضرورةً ـ صحةً حسنةً مشاهدة ـ أنه لا بد في اللغات من معلِّم . ولا بد في الصناعات من معلم . ليس من المعلمين الذين في طبعهم تعلم ذلك دون تعليم . إذ لو كان ابتداءُ ذلك موجوداً في الطبيعة لوجِدَ ذلك في كلِّ عصر وفي كلِّ مكان . لأن الطبيعة واحدة في جميع النوع ؛ وكذلك نجدهم يستوون كلهم فيما توجبه الطبيعة لهم . إلا أن يعرضَ عارضٌ حائلٌ في بعض النوع . فوجب ضرورةً أن مبتدئ إيجاد [(4)] العالم هو الذي ابتدأ تعليم اللغات وابتدأ تعليم الصناعات . لا بدَّ من ذلك . وأنه تعالى علَّم كلَّ ذلك أوَّل من أحدث

---

(١) ص : وجدوا .

(٢) ص : ويفيق .

(٣) اقرأ في الفصل ١ : ٦٨ ـ ٧٢ نصاً مشابهاً لهذه الفقرة .

(٤) ص : إيجاب .

من نوع الإنسان ، ثم علَّمها ذلك المعلَّمُ سائر نوعه . ثم تداولوا تعلم ذلك . وهذا برهان ضروريٌّ حسيٌّ مُشَاهَدٌ ، يقتضي - ولا بدَّ - وجودَ الخالق ووجودَ النبوة ، وهي تعليم الخالق اللغات [1] والعلوم والصناعات ابتداءً ، ووجودَ الرسالةِ وهي تعليمُ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم لمن أمِرَ بتعليمه إياه .

١٥ - فإذْ قد صحَّ هذا كلُّه من قُرْبٍ ، فالنظرُ واجب : هل مبتدئ العالم واحد أم أكثر من واحد . ومعرفة حقيقة هذا يقرب جداً - وذلك أنه لولا الواحد لم يوجد عَدَدٌ ولا معدودٌ ، ففتشنا العالم كله هل نجدُ فيه واحداً فلم نجده أصلاً ، لأن كلَّ ما في العالم فإنه ينقسمُ أبداً فهو كثيرٌ لا واحد ، فإذاً لا بد من واحدٍ في العالم ، فالواحدُ هو غيرُ العالم ، وليس غيرُ العالم إلا مبتدئ العالم ، فهو الواحدُ الذي لا يتكثر ، لا واحدَ سواه ؛ فوجدنا العالم مُحدَثاً تالياً كما وصفنا ، لم يكن ثمَّ كوَّنه مكوِّنه الذي ابتدأه ، ولا بدَّ من أوَّلٍ ، إذ لولا الأوَّلُ لم يكن الثاني أصلاً ، ووجودُ الثاني يقتضي ضرورةً وجودَ [١٤٥ ب] الأول ، ولا بدّ ؛ والثاني موجودٌ فالأولُ موجود . ففتشنا العالم كله عن أوَّلٍ لم يَزَلْ فلم نجده لأنه كله مُحْدَثٌ ، لم يكن ثم كوَّنَهُ مبتدئه ، فوجب ضرورةً أن الأول غيرُ العالم ، وليس غيرُ العالم إلا مبتدئ العالم ومحدثه .

١٦ - فإذ قد صحَّ الخالق وأنه واحدٌ أول لم يزل ، وصحَّت النبوة ، وصحت الرسالة ، فالنظر واجب في الأنبياء :

فوجدنا شريعةَ النصارى في غاية الفساد لوجوه : أحدها قولهم بخلاف التوحيد في الابن والأب وروح القدس . والثاني لفساد نقلهم لرجوعه إلى ثلاثة فقط وهم مرقش ولوقا ويوحنا الناقل من متى [2] ، فوضح عليهم الكِذابُ وأن أناجيلهم متضادة ، ظاهرة الكذب [3] في أخبارها ، فبطلت الثقة بنقلهم ، مع أنها شريعة معمولة من أساقفتهم وملوكهم بإقرارهم ، وما كان هكذا فالأخذ به لا يجوز ؛ إذ لا يجوز في هذا المكان إلا ما صحَّ أنه جاء به المرسل عن الله تعالى .

ووجدنا اليهود أيضاً شريعتهم في غاية الفساد لأنها راجعة إلى كتب ضائعة النقل ، لم ينقلها من أول كونها إلى فشوُّها عندهم كافة ، بل دخلها التغيير والإتلاف وانقطاع

(١) انظر رأي ابن حزم في كيفية ظهور اللغات أعن توقيف أم عن اصطلاح ، مفصلاً في الإحكام ١ : ٢٩ وما بعدها .

(٢) راجع في هذا المعنى كتاب الفصل ١ : ١١٤ ، ٢١٠ .

(٣) ص : الذب .

حكمها ونقلها ، لكفرهم بها أيام دولتهم ، ثم بعدها [1] ، واتصال ذلك فيهم المئين من السنين ، مع عظيم ما فيها من كذب الأخبار ، مع بطلان شرائعهم التي أمروا بها بإقرارهم ، وامتناع إقامتها ، وما كان هكذا فليس هو من عند الله بل هو باطل مفتعل ، إذ لا سبيل إلى العمل بالواجب عندهم .

ثم نظرنا في المجوس فوجدناهم مُقِرِّينَ أن شريعتهم كثيرٌ منها من عمل أزدشير بن بابك الملك ، وأنه ضاعَ من شريعتهم وكتابهم نحو الثلثين [2] أيام أحرقَ الإسكندرُ كتابهم ، وما كان هكذا فلا يجوز التدينُ به لأن الدين [الذي] يزعمون أنه الحق لا يختلفون في أنه قد عدِمَ ، وما كان هكذا فلا يتدين به عاقل .

ثم نظرنا [١٤٦/أ] في المنانية [3] فوجدنا نقلهم فاسداً غير متصل بصاحبهم مع ظهور الكذب في كتب صاحبهم ، وفساد ما أتى به وأخبر عنه . ولم ينقل له أحد آيةً معجزة نقلاً يُوجبُ صحةَ العلم بها ، وما كان هكذا فهو باطلٌ بلا شك ، مع ما فيها من الفساد الظاهر من إيجابه قَطْعَ النسل ليعودَ النور إلى خلاصه ، وهذا أمر لا يمكن ألبتة لاختلاف أجناس الحيوان البحري والطائر والدارج وعدم القوة على قطع تناسلها ، فلا أفسد من شريعة مدارها على سبيل إيجاب ما لا سبيل إليه .

ثم نظرنا في الصابئين فوجدناها ملةً قد بطلت بالكلية ، ولم يبق لها أثر مع أن أصولهم أصُولُ المنانية التي لا شك في كذبها . وأيضاً فإن نقلهم قد انقطع فلا سبيلَ إلى تصحيح معجزةٍ شاهدةٍ لمن قلدوه دينهم . وأيضاً فإن شرائعهم بإقرارهم من عمل أكابرهم ، وما كان هكذا فلا يتدين به عاقل .

فإذ قد بطلت هذه الديانات وليس في العالم ملة تقر بنبيٍّ غير هؤلاء - ولا بُدّ من ملةٍ مأخوذةٍ عن نبيّ إذ لا سبيل إلى معرفة ما يأمر به الخالق تعالى إلا بنقل نبيٍّ - لم يبق إلا محمد بن عبد الله عليه السلام وملته هو الذي كتابه منقولٌ نَقْلَ الكوافّ من

---

(1) غير واضحة في ص .

(2) كذا ذكر في الفصل (١ : ١١٥) وقبل ذلك (١ : ١١٣) قال : مقرون بلا خلاف أنه ذهب منه مقدار الثلث .

(3) في ص : المباينة : والمنانية هم أتباع ماني (انظر كتاب الفصل ١ : ٣٥ والشهرستاني على هامش الفصل ٢ : ٨١) ومدار مذهب ماني على تخليص النور من الظلمة ، وهذا يقتضي الزهد والرياضة ، التي ينتج عنها طبقة الصفوة من الناس فيحرم عليهم التناسل . وكل شيء حتى إطعام أنفسهم بأنفسهم ، وكل رجل من هؤلاء لا بد له من رفيق من طبقة السماعين أو المريدين يقوم بخدمته .

عنده إلينا ـ بخلاف نقل الإنجيل الراجع إلى ثلاثة قد ظهر كذبهم ، وبخلاف نقل (١) التوراة التي هي راجعة إلى واحد وهو عزرا (٢) ، وكانت قبل ذلك أيام دولتهم ممنوعةً من كل واحد إلا من الكاهن وحده ـ وأعلامُهُ منقولة كذلك في الكتاب المذكور ، كإعجاز القرآن وعجز العرب عنه وكشقِّه القمرَ إذ سألوه آية ، وكتجربة اليهود بأن يتمنوا الموتَ وإعلامه أنهم (٣) لا يتمنونه أبداً (٤) وإذعانِ ملوك اليمن وإيمانهم به دون خوف منهم له ولا طمعٍ منه في حظوة [١٤٦ ب] دنيا من مال أو جاه لديه ، بل دعاهم إلى ترك الملك والنزول عنه والدخولِ في العامةِ ، وإسقاط الفخر والثأر والعداوات وطلب الدماء ، والرجوع إلى مؤاخاة من قَتَل الآباءَ والأبناء ، فأجابوه كلهم كملوك اليمن وملوك عمان والبحرين وغيرهم ـ حتى جبلة بن الأيهم ثم ارتد أنفَةً ولم يزل نادماً على ردته ـ لا ينكر ذلك أحد ، مع براءة كتابه المنزل عليه من كل كذب ومن كل مناقضة ومن كل محال ، فصحت نبوته صحةً لا مرية فيها ، وشريعته المتصلة من عهده عنه إلينا ، لأنها لم تكن قطُّ منقطعةً فيما بينه وبيننا ولا طرفة عينٍ فما فوقها ، ولا كانت عند خاصٍّ دون عام ، بل منقولة من بين المشرق والمغرب .

فإذ قد صحَّ هذا كله : فالواجب على العاقل ألا يقطعَ دهره إلا بطلب معرفةِ ما ينجيه في مَعَاده ، ويخلصه من الهلكة ومن النيران المحيطة بها ، ويرفعه إلى السموات التي هي محلُّ الحياة الأبدية والنجاة من كل مكروه ، وموضعُ السرور السرمديّ واللذات الدائمة التي لا انقطاع لها ، ولا يشتغل من سائر العلوم إلا بمقدار ما يعرف به أعراضها ، ويزيل عن نفسه عمى (٥) الجهل بأنه لعلَّ فيها ما ليس فيها ، وما يتعلق بالديانة منها ، ثم يرجع إلى ما فيه خلاصه .

وإذ لا شك في هذا فاعلم أن الفلاسفة لم يدَّعوا قط أنهم تخلصوا بها بعد الموت ،

---

(١) ص : فعل .

(٢) هو من الشخصيات الهامة في التاريخ الإسرائيلي ويقال إن ملك الفرس المسمى Artaxerxes أرسله من بابل إلى القدس ليعيد الشريعة المهملة فقرأ في القدس الشريعة على الناس وأدخل فيها إصلاحات . ويقال إن عمله لم يقتصر على إعادة توراة موسى التي كانت قد احترقت بل إنه أحيا كثيرا مما كان قد درس من كتب اليهود . غير أن بعض المؤرخين يظن أنه لم يكن شخصية تاريخية .

(٣) ص : أنه .

(٤) سورة البقرة : ٩٤ وانظر فصلاً عقده ابن حزم عن أعلام الرسول في كتابه « جوامع السيرة » الورقة السادسة وما بعدها . قال : ودعا اليهود إلى تمني الموت وأخبرهم أنهم لا يتمنونه فحيل بينهم وبين النطق بذلك .

(٥) ص : عم .

ولو ادعوا ذلك لكانت دعواهم كاذبةً لتعرّيها من برهانٍ يُصَدِّق الأبدية ، والنجاةَ من كل مكروه ، وموضعَ السرور السرمدي واللذاتِ الدائمة التي لا انقطاع لها . والله أعلم بالصواب . وأيضاً فإنهم في آرائهم في أديانهم يختلفون : هذا بَيِّنٌ في كتبهم . فبعضهم يثبت حدوثَ العالم كسقراط وأفلاطون . وبعضهم يثبتُ أنه لم يَزَلْ وأنه له فاعلٌ لم يَزَلْ يخلق ، وهذا قول ينسب إلى أرسطاطاليس . وبعضهم يثبت النبوة والمعاد والجزاء في المعاد ، والملائكة ، كأفلاطون وصاحبِ كليلة ودمنة من [١٤٧/أ] فلاسفة الهند ، وبعضهم يقول بتناسخ الأرواح ، كصاحب كتاب سندباد من فلاسفة الهند . فهم كغيرهم في الاختلاف . ولا فرق . ولا فضل .

فالعاقل الناصح لنفسه هو من اتبع من يُخَلِّصه . والمجنون هو من اتبع من لا يخلصه ولا يغني عنه شيئاً . ولا ينفعه عاجلاً ولا آجلاً . ليس في الحماقة أكثر من هذا . وإذ لا شك في هذا فهذه صفة تعمُّ كل أحد حاشا الذي أرسله الله خالقنا تعالى إلينا ، لخلاصنا في عاجلنا وآجلنا .

١٨ ـ واعلم أنَّ من طلب علم الشريعة ليدركَ به رياسةً أو يكسبَ به مالاً فقد هلك . لأنه طلبه لغير ما أمره خالقه أن يطلبه ؛ لأن خالقنا ـ عزَّ وجل ـ إنما أمرنا أن نطلب ما شرع لنا لننجو به بعد الموت من العذاب والسخط . فمن طلبه لغير ما أمره به خالقه ، فَقَدَ عطاءه وبطل تعبه وحبط عمله وضلَّ سعيه .

١٩ ـ واعلم أنَّ من أخذ الشريعة عن غير ما صحَّ عن صاحب الشريعة الذي أرسله الله تعالى بها . واتبع من لم يأمره الله تعالى باتباعه فقد خاب وخسر وبطل عمله ، والذي قلنا في هذا هو الذي مضى عليه جميع أهل الحق من الذين صحبوا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فمن بعدهم . جيلاً جيلاً ؛ وحدث في خلال ذلك من الآراء الفاسدة ما لا يخفى على أحد حدوثه ومبدأه . وقد لاحَ أنَّ كلَّ حادث غير ما أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو باطلٌ مفترى . والباطل فرضٌ اجتنابه . وبالله التوفيق .

فهذا بيان ما سألت عنه بغاية الاختصار والبيان ونهاية البرهان . والحمد لله كثيراً ، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وسلم تسليماً كثيراً .

كملت رسالة التوقيف على شارع النجاة باختصار الطريق ؛

بحمد الله تعالى وعونه وحسن توفيقه . وبالله المستعان